

الفصل الأول

السعادة الحقيقية

كلنا نحب أن نكون سعداء، لكن ذلك ليس سهلاً، والمشكلة أننا نريد أن نمتلك كل شيء يقدمه هذا العالم، إعتقاداً منا أن هذا سيسعدنا. لكن الرسول بولس كان لديه موقف مختلف تماماً، فكتب يقول: "فإني قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه. أعرف أن أتضع وأعرف أيضاً أن أستفضل. في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدرّبت أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص" (فيلبي 4:11، 12).

إن الله هو المصدر الوحيد للسعادة الحقيقية، فهو لا يحتاج لأي شيء أو لأي شخص، ليجعله سعيداً. حتى قبل أن يخلق العالم، كان الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس سعداء تماماً بعضهم ببعض. وما يفعله الله للمؤمنين هو أن يجعلهم سعداء مثله. هذا أمر ضروري، لأنهم ليسوا من الصلاح أو القوة ما يكفي لیسعدوا أنفسهم. إن الله يعطيهم جميع ما يحتاجون إليه، كما كتب يوحنا: "ومن ملته نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة" (يوحنا 1:16). لذلك فإن المؤمنين يمكنهم أن يكونوا سعداء دائماً، حتى عندما لا يكون لديهم إلا القليل جداً مما يقدمه هذا العالم؛ لأن لديهم البركات الروحية التي يمنحها الله؛ ففي المسيح لهم كل ما يحتاجون إليه.

هذه السعادة المسيحية تسمى أحياناً "الفتاعة". كتب بولس الرسول: "وأما التقوى مع الفتاعة فهي تجارة عظيمة. لأننا لم ندخل العالم بشيء، وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء. فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما. وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء

فيسقطون في تجربة... " (1تي6: 6-9). "لتكن سيرتكم خالية من محبة المال. كونوا مكتفين بما عندكم لأنه قال: لا أهملك ولا أتركك" (عب13: 5).

وأول ما يمكن قوله عن هذه السعادة المسيحية، هو أنها تنبع من الداخل. من الممكن أن نعطي انطبعا بأننا سعداء بما أعطاه الله لنا، حيث أننا لا نشكوا، بينما نكون في أعماقنا متذمرين، لكن الله يرى حقيقة ما نفكر فيه. لقد كتب داود: "إنما الله انتظري يا نفسي" (مز62: 5)، لأنه كان يعرف أن هذا هو الطريق الوحيد ليكون سعيدا حقا. وبالمثل فإن هذه الثقة في الله، وهذه السعادة التي تنبع من أعماق المؤمنين، تؤثر في كل جزء فيهم. كان داود يعرف أن الله هو المسيطر على كل شيء، ولكنه مع ذلك تعرض للإحباط، لأنه لم يدع هذه الحقيقة تؤثر تأثيرا فعالا في الطريقة التي كان يفكر بها، وهذا كان السبب الذي جعله يكتب: "لماذا أنت منحنية يا نفسي ولماذا تتئنين في؟" (مز42: 5). علينا – كما كان عليه – أن نضع قلوبنا على السعادة التي تنبع من الداخل، وتجعلنا سعداء سعادة تامة، مثلما يحتبس دفاء أجسادنا بملابس الشتاء ونستمتع بدفاء تام، هكذا السعادة المسيحية، إنها سعادة دائمة.

والأمر الثاني الذي يمكن أن نقوله عن السعادة المسيحية، إنها باقية حتى في وجود المآسي. عندما يواجه المؤمنون المشاكل، فإنهم يحزنون مثل باقي الناس، وعندما يكون الآخرون في ضيق، فإن المؤمنين يحزنون معهم. إنهم يصلون من أجل أنفسهم ومن أجل المتألمين. وهذا ما يجدر بنا أن نفعله، لأن الرب يسوع الذي تألم مجربا، "يقدر أن يعين المجربين" (عب2: 18). إن المؤمنين الناضجين، الذين لديهم المشاكل، يصلون إلى الله ولا يتذمرون، وعندما يجربون بأن يتذمروا، فإنهم يضبطون أنفسهم. إنهم لا يتذمرون على الله بل يداومون على طاعته ومحبهه. وعندما يتحدثون عن مشاكلهم، يكون ذلك في الصلاة لأنهم مازالوا يؤمنون بأن الله قادر أن يعينهم.

والجانب الثالث والهام للسعادة المسيحية هو أنها عمل الله، فهي ليست نتيجة لمزاج طبعي سعيد بطبيعته، ولا هي نتيجة لرفض الإنغماس فيما يجري في العالم، فحتى غير

المؤمنين يتجنبون هذا الإنغماس. لكن السعادة المسيحية أعظم بكثير من "محاولة تجنب القلق". إن لها عنصراً إيجابياً أيضاً؛ فالمؤمن يريد أن يكون سعيداً باستمرار لأن ذلك يمجّد الله.

وبالتالي فالجانب الرابع الذي يمكن أن نذكره عن السعادة المسيحية، هو أن الذي يجعل المؤمن سعيداً سعادة حقيقية، هو فعل ما يريده الله. فالمؤمنون لا يُجبرون على إطاعة الله، بل يطيعونه بكل سرور، ويجدون سعادتهم في ذلك. وعندما يفكرون في ذلك، يدركون أنه لا شيء يجعلهم سعداء مثل خضوعهم لإرادة الله. وهم راضون بأن يخطئ الله لهم مستقبلهم، حتى وإن كانت خطئه مختلفة تماماً عما يريدون. في الواقع هم يفضلون خطأ الله على خطئهم، لأنهم واثقون أن الله يعرف ما هو لصالحهم أكثر مما يعرفون. والحقيقة أنه يفهمهم أكثر مما يفهمون هم أنفسهم! أما غير المؤمنين الذين يعتقدون أن مصيرهم بأيديهم، فيخافون من المستقبل، لأن خطأ واحداً يمكن أن يؤدي إلى كارثة، بينما المؤمنون لا يخشون شيئاً، إذ يمكنهم تسليم المستقبل لله، ويستمتعون بأن يقودهم. لقد كتب سليمان الحكيم: "توكل على الرب بكل قلبك. وعلى فهمك لا تعتمد. في كل طريقك اعرفه وهو يقوّم سبلك" (أم3: 5، 6). إن معرفة المؤمنين لحقيقة أن الله هو ضابط كل شيء، يجعلهم سعداء، سواء أثناء اجتيازهم في ضيق، أو بعده عندما يتأملون الأحداث، ويرون كيف اقتادهم الله فيها.

وما هو أكثر من ذلك، أن السعادة المسيحية تدوم، مهما كان نوع الضيق الذي نجتازه. ليس للمؤمنين الحق في أن يقرروا نوع المعاناة التي يجتازون فيها كأن يقولوا: "إنهم مهيؤون لأن يفقدوا ممتلكاتهم وليس صحتهم!" إنهم سعداء مهما كان نوع المعاناة التي تحل بهم. ربما تتوالى عليهم أنواع المعاناة، حتى يبدو وكأن حياتهم تتألف من سلسلة من المتاعب، لكنهم يحتفظون بسعادة حقيقية في أعماقهم. وقد يبدو المشهد أنه لا نهاية لمتاعبهم، لكنهم يحتفظون بسعادتهم في أعماقهم؛ وبهذا يتمجد الله الذي خطط لحياتهم كلها.